المشرق

قلعة بعلبكّ وحفريّات الالمان فيها

لجناب الاثري ميخائيل افندي موسى الوف

اخذت قلعة بعلبكّ بألباب الامبراطور الالماني وليم الثاني عند ما زارها في العاشر من تشرين الثاني سنة ١٨٩٨ فأُعجب بنفاستها وذُهل من سمو طريقة هندستها وقد حارهُ امرُ مؤرخي العصور التي بُنيت فيها كيف غفلوا عن ذكرها وتخليد من كانت له اليد الطولى في وضعها وبنائها على مثال يعجز عن وضع مثلهِ مهندسونا اليوم. فقالت جلالتهُ لعلَّ في اطلالها ما يفكّ طِلَّسم اسرار هذه الهياكل ويُنبئنا عمَّن باشر بناءها ويبتُّ الحكم بما تشعَّبت فيهِ ظنون علماء الآثار لبيان كونها فينيقيَّة ام رومانية. ولذا بعد عودته الى برلين رغب الى عظمة مليكنا المعظم بان يرخّص حفر قلعة بعلبك والتنقيب على العاديَّات فيها وفي جوارها لبعثة المانية مؤلفة من خيرة مهندسي الحكومة. فصدر الفرمان السلطاني مؤذنًا بذلك. وفي بدء السنة ١٨٩٩ قدم الدكتور كولدواي (Koldewey) والمهندس الرسَّام اندره (Andrae) وباشرا باستكشاف طريقة الحفر ووضعا خريطة مدققة للهياكل وقدما للامبراطور تقريرًا باسلوب الحفر والمبالغ اللازمة له فصدر امره العالي بصرف القيمة المطلوبة من خزينة دولة بروسية

وفي شهر آب من سنة ١٩٠٠ قدمت البعثة مؤلفة من الاستاذ العلامة اوتو بوخشتين (O. Puchstein) والمهندس برونو شولس (B. Schulz) ومعاونهِ دانيال

كرنكر (D. Krenker) والمستشرق موريس سوبرنهيم (M. Sobernheim) وبدأوا حالًا بالشغل والتنقيب

امَّا هياكل بعلبك فكان من حظها بعد ان مُحقت عبادة الاصنام بنور النصرانية في زمن ثيودوسيوس الكبير ان قد حُوّل بعضها الى كنائس كالهيكل الصغير فيها وبُنيت كنيسة اخرى كبيرة في وسط البهو الكبير المتقدم هيكل الشمس ورفعت من مواقفها الاصنام وحُطِّمت ولم يُبقَ على اثر لعبادة الوثن . فلمَّا قدم العرب بجيشهم الفاتح في الثلث الاوَّل من القرن السابع للمسيح واستولوا عليها وجدوا في هذه الابنية العظيمة منعةً ومتانةً توافق غرضهم منها فحصَّنوها بالابراج ومرامي السهام واحاطوها بخندق عريض وجعلوها قلعة صعبة المنال . ثم سكنوها فبنوا في داخلها الجوامع والبيوت والحمَّامات والايوانات والمخازن والأسربة بناء يختلف كثيرًا عن تحصيناتهم . فان هذه بُنيت بالحجر الضخم مع الإحكام في الوضع وامَّا تلك الابنية الداخليَّة فكانت بالحجر الصغير ممَّا يشبه ابنيتنا الضئيلة اليوم وانَّما فُرشت ارض البيوت بالفسيفساء الملوَّنة ووضعت فيها البحرات الصغيرة وأُجريت اليها المياه من القناة الرومانية القديمة باقنية من الفخار الصلب . واستعملوا في كل ذلك حجارة الابنية القديمة حتى انهم كانوا يضعون تاج العمود في الحائط بمقام الحجر وكذلك القواعد التي كانت تحمل الاصنام وعليها الكتابات الرومانيَّة فكانوا يهشمونها او يبتون عليها ويستعملونها في ابنيتهم . وكانت هذه الابنية تتداعى على اثر الحروب والزلازل والاهمال فيُبنى غيرها على انقاض الابنية الاولى وهكذا حتى صار التراب ركامًا في داخل القلعة فرُدم كثيرًا منها كما طُمس البناء البيزنطي المسيحي والروماني حتى اختفى كثير من مواقف الاصنام والدرج والجدران والمذابح وغيرها تحت انقاض الابنية الحديثة

وقد غلب على ظن الناس بان الالمان سيجدون اصنام الهياكل وادوات الدين القديم وسيكتشفون على آلات البناء والوسائط الآلية التي كانوا يرفعون بها مواد البناء الضخمة وانهم لا بد ان يجدوا ما تركهُ الاقدمون من الكنوز والخبايا وعبثًا كنَّا نحاول اقناع البعض باستحالة ما يتوهمون لان القلعة كانت منذ ايَّام قسطنطين حتى اواسط القرن الثامن عشر مأهولة وان المسيحين في زمن قسطنطين وثيودوسيوس حطموا جميع الاصنام وصيروها كلسًا والعرب في القرون الوسطى استولوا على زينة الكنائس وحفروا القلعة

مرارًا للتنقيب عن دفائنها ولم يتركوا شيئًا ذا قيمة الّا واستولوا عليهِ حتى انّهم تعروا قواعد العمد حيث كانت قطع من النحاس تُحكم وضع القطعتين من العمود على بعضها واستولوا عليها. وبعد الحفر صحّ الخبر ولم يظهر لتخيلات القوم من اثر. وجلّ رغبة الالمان في الحفر خدمة العلم والوقوف على حقيقة تاريخ البلدة ورسم خريطة متقنة لمبانيها وهندسة هياكلها كما كانت في زمن الرومان وكما اوصلتها الينا يد الحدثان لنفع طلبة التاريخ والهندسة والفنون الجميلة

وقد دامت عمليات الحفر والتنظيفات وترتيب الحجارة الواجب ابقاؤها في القلعة من اواسط شهر ايلول سنة ١٩٠٠ الى منتهى تموز سنة ١٩٠٣ وتفرغ اليوم المهندسون لرسم اقسام القلعة الرسم الدقيق المتقن بالحبر الاسود وسينشرون خلاصة اعمالهم وتاريخ المدينة والقلعة في السنة القادمة على الاغلب وسيطبعون جميع الرسوم في مجلّد خاص

. . . .

لا بد لنا من وصف حالة الهياكل قبل الحفر باختصار ليطلع القارئ على التغيرات التي حدثت بفضل اعمال البعثة الالمانية. اعلم انّ الشهرة التي كانت ولم تزل لبعلبك مصدرها عبادة البعل اي الشمس ولا يبعد ان هذه المدينة كانت كعبة للقوم الشرقيين تحجّ اليها رحالهم وتعظمها تصوراتهم ومعتقداتهم فحدا ذلك بالرومان الى ان بنوا فيها هذه الهياكل بعظمة ونفاسة غلبت على ابنية السوريين الفينيقيين السابقة التي طمس خبرها واختفى اثرها. فبنى الرومان هيكل الشمس متجهًا الى المشرق على دكة هائلة من الحجارة المظيمة علوها عن سطح الارض الحالية لا يقل عن الخمسة عشر مترًا وجعلوا امامهُ بهوًا كبيرًا مربع الشكل سطح ارضهِ دون سطح ارض الهيكل بستة امتار وزينوهُ بالاروقة الجميلة والمعابد المزخرفة. واقاموا قدامهُ بهوًا آخر مسدس الشكل مزين بالاروقة والمعابد كالبهو الكبير. وامام الجميع رواق مربع مستطيل يتقدمهُ صف ذو اثني عشر عمودًا من الحجر المحبب (الكرانيت) وامامها درج عظيم طولهُ نحو ٥٠ مترًا في علوّ ٨ امتار وقد هدم العرب هذا الدرج ونقلوا العمد الى الجوامع وبنوا حائطًا على قواعد العمد بحجارة الدرج ليحصنوا المكان. فكشف الالمان عن هذه القواعد واستأذنوا بهدم الحائط العربي ليظهر الرواق بمظهره القديم ولو دُرس اثر درجهِ وأُخذت

عمده. ثم فتحوا في الحائط الخلفي من الرواق الابواب التي كانت قد سدتها العرب ومن هذه الابواب يُتطرَّق الى البهو المسدس الذي قد بلغت فيه اتربة الردم اعلاهُ وما كان يظهر منهُ شيء يذكر . فنظفهُ الالمان وكشفوا عن معابده والغرف التي كانت بينها اسكنى الكهنة واستدلوا على انهُ كان على بعد ثمانية امتار من كل جهة من هذه المعابد خط مسدس الشكل كالبهو يتألف من ثلاث درجات وفوقهُ صف من الاعمدة الكرانيتية. وكان بينها وبين جدار المعابد الخلفي سقف هرمي الشكل. وهكذا كان الشعب يمرّ امام المعابد تحت رواق من العمد مسقوف وساحة البهو كانت مكشوفة للشمس ولا يبعد انها كانت ماءًا يتلاهى به الشعب

ووجد الالمان بين الابواب التي نوهنا عنها ادراجًا لولبية الشكل يُصعد منها الى سقف البهو وبازاء هذه الابواب من الجهة الاخرى كانت الابواب التي يدخل منها الى البهو الكبير المربع فنظفها المهندسون واظهروا بان الباب الكبير الاوسط كان مزدانًا بنقوش السنابل والعنب

وكان البهو الكبير محاطًا باثني عشر معبدًا على جهاته الثلاث بعضها على نصف دائرة وبعضها مربع مستطيل وامام المعابد كانت اعمدة من الحجر الحبب فاكتشف الالمان امامها وعلى بعد ثمانية امتار و ٤٠ سنتيمترًا منها خطًا مؤلفًا من ثلاث درجات امام الجهات الثلاث من البهو الّا الجهة الغربية فلم يُبنَ فيها شيء لئلا تستر مبانيها منظر الهيكل الكبير الذي كان بعد البهو وبيّنوا بانهُ كان فوق الخط المذكور صف من الاعمدة القورنطية ايضًا وكانت تحمل فوق افريزها السقف الهرمي الذي يصل بينها وبين الحائط الخلفي من المعابد فكانت هذه الاعمدة كرواق امام المعابد مستور من حرارة الشمس وامطار الشتاء والبهو ذاته كان مكشوفًا للشمس. ولم يبقَ من هذه الاعمدة الجميلة سوى بضعة قواعد باقية في مراكزها وكثير من القطع ملقاة على الارض ووجدوا كثيرًا من افاريزها الجميلة ذات نقوش يحتار الفكر في دقة صنعها فهي مزدانة برسوم البيضي والنبال وحب اللؤلؤ واسنان العجوز واغصان الورود والزهور واوراق النباتات والاشجار المختلفة وجميعها ناتئة ومفرغة حتى ان الاصبع يمر تحتها بسهولة وتظهر هذه الرسوم كأنها وُضعت وضعًا على الحجر مع انها واياهُ قطعة واحدة

واكتشف الالمان في وسط هذا البهو مذبح المحرقات ذرعه عشرة امتار ونصف

طولاً وتسعة امتار ونصف عرضاً والى جانبيهِ على بعد ٢٤ متراً منهُ حوضان للماء طول الواحد منهما نحو ٢١ متراً وعرضهُ ٧ امتار وارتفاعهُ نحو متر وجدرانهُ من الحجر الاصم مقسمة بين مربعات مستطيلة وانصاف دائرة ومزينة برسوم بديعة تمثل رؤوس البقر مزدانة باكاليل الزهور وآلهة الحبّ (les Amours) حاملةً للأكلّة او ترى راكبةً على التنانين تصيد الدلفين ورسوم أُخرى تمثل ميدوزا وشعرها كالحيّات مسترسل

وهناك رسوم من ادق صناعة النقش تمثل التريتون مزمّرةً بالشبّابة وخلفها حوريات البحر (les Néréides) وهذه تلاعب ملائك الحبّ. وأظهروا وراء المذبح بقية الدرج العظيم الذي كان يصعد منهُ الى هيكل جوبيتر الشمسيّ وهو ما كنّا ندعوه قبلاً بهيكل الشمس. فانهُ قد وضح منهُ نتيجة لبحاث الالمان بان هذا الهيكل العظيم كان مكرساً لجوبيتر الشمسيّ وجميع الكتابات اللاتينيَّة التي وجدت بين انقاض البهو الكبير كانت مفتتحة بعبارة التقدمة الى هذا الاله J (ovi) O (ptimo) M (aximo) Hel (iopolitano) « الى جوبيتر الكبير العظيم الشمسيّ او البعلبكي ». لكنَّ المهندسين لم يجدوا بين تلك الانقاض تمثالاً ما يمثّل هذا الاله لانهُ كما توهّمنا قبلاً لم يترك قسطنطين وثيودوسيوس اثراً لتلك الاصنام

بيد ان المهندسين المشار اليهم بينما كانوا يبحثون في نيحا البعيدة ثلاث ساعات ونصف الى الغرب على آثار هيكلها الشبيه بهيكل بعلبك وجدوا في جدار كنيسة الروم الارثوذكس ختماً يمثل جوبيتر البعلبكي (١ ووجدوا تمثالاً آخر نظيره بين انقاض اثر قديم بقرب نبع اللجوج على مسافة ساعة ونصف عن البلدة شرقاً بين وهاد الجبل الشرقي (انتيلبنان) وهو النبع الذي جلبت مياههُ الى القلعة بقناة رومانية. وهذان التمثالان منحوتان على حجر مربع وجوبيتر ممثّل على الوجه الواحد من الحجر بصفة شاب لابساً على راسهِ قلنسوة وبيدهِ اليمنى سوط وباليسرى شيء مبهم لعلّهُ الصاعقة. وفي عنق التمثال عقد وهو لابس صدرة نُحتت عليها ست زهرات كل ثلاث منها بصفّ وتحت بطنه وسم صغير يمثّل هرمس على ركيزة حاملاً على رأسه قلنسوة وفي عنقه عقد والى جانبيه رؤوس عجول وعلى كل من الوجهين المحاذيين للصورة الآنف ذكرها رسم

١) في هذا القول وما يليهِ نظر. وسيأتي الكلام عنهُ في مقالة الاب جلابرت في العدد القادم (المشرق)

ثور تعلوه صورة صاعقة وقد اثبت البارون اوبنهيم (v. Oppenheim) في كتابه نفس هذه الصورة من تمثال موجود في متحف برلين وذكر مثلها الاستاذ بول پردريزه (Perdrizet) في تقريره لمجمع بوردو العلمي وكلاهما يدعوها بعل بعلبك ولا بدع ان يوجد تمثال جوبيتر بعلبك على ابعادٍ مختلفة من مركز عبادته فانها كانت شائعة في كل البلاد البقاعيَّة خصوصاً والسوريَّة عموماً

هذا وان قسطنطين الملك بدأ بهدم هيكل جوبيتر المذكور واكمل خرابه الامبراطور ثيودوسيوس ووُضعت انقاضه في وسط البهو الكبير بين الحوضين المذكورين آنفاً حتى تعالت فوق مذبح المحرقات وطمرت القسم الاسفل من الدرج العظيم. وعلى هذه الدكة بنى ثيودوسيوس كنيسة عظيمة مدخلها من الشرق وهيكلها في الغرب خلافاً للاصطلاح الشرقي وقد أُجبر الى ذلك لان مدخل الهياكل الاصلي من الشرق. وهذه الكنيسة طولها ٦٣ متراً وعرضها ٣٦ م وهي مقسومة في الداخل الى ثلاث قناطر واسعة وعالية متَّسقة على هيئة ثلاثة اسواق تقابل ثلاثة مذابح الخورس. ووُجد في جدرانها بعض الكتابات اللاتينيَّة المأخوذة من الهيكل الوثني وكثير من المنقوشات وقطع العمد الضخمة والافاريز القديمة. والى جانب الخورس للشمال الغربيّ بجذاء الكنيسة بُني موقه صغير (سكرستيا) وجهة مذبحه الى الشرق وامام ابواب الكنيسة الثلاثة فسحة يتقدمها درج عظيم طوله كعرض الكنيسة ٣٦ متراً وضع هناك من انقاض القسم العلوي من درج هيكل جوبيتر الذي ذكرناه آنفاً والذي هُدم لتقوم مقامه مذابح الكنيسة. ويظهر انهُ بعد مدة طويلة من بناء الكنيسة رأى البيزنطيون ان مواجهة المذبح للغرب تخالف الرسوم الشرقية فنقلوها الى الشرق حيث كانت الابواب ووضعوها هناك على الفسحة التي يتقدمها الدرج وفتحوا باباً من الغرب مكان المذبح القديم وقد وجدت آثار تدل جليًّا على ذلك

ولما استولى العرب على البلد، حوَّلوا ابنيتها العظيمة الى قلعة ومحوا آثار الديانة المسيحية من داخلها وبنوا في سوق الكنيسة الايمن حمَّاماً وفي صحنها وسوقها الايسر بيوتاً للسكن وفرشوا ارضها بالفسيفساء الملونة ووضعوا في فناء دورها الجرات المزخرفة وقد ترك الالمان بعض الآثار التي تدل على ذلك

قلنا ان بين الحوضين العظيمين ومن وراء مذبح المحرقات درجاً يُصعد به الى هيكل

جوبيتر وقد اكتشف منهُ الالمان القسم الذي طمرهُ البيزنطيون وكان الدرج المذكور ثلاث بسطات فهدم المسيحيون المذكورون القسم الاوسط والاعلى منهُ ليبنوا هياكل مذابح الحورس ومنهُ كان يُصعد الى ارتفاع ستة امتار الى هيكل جوبيتر العظيم الهائل بنائهِ وزخرفهِ. وكان اعتقادنا قبل الحفر كاعتقاد بعض الاثريين بان هيكل جوبيتر هذا كان مبنيًّا بالعمد فقط ولم يكن لهُ جدران من الداخل بل كان مكشوفًا للشمس لان اتساعه عظيم اذ ان طولهُ من الشرق الى الغرب ٩٢ مترًا وعرضه ٤٥ فيستحيل على هذا المدى الواسع ان يكون مسقوفًا ولاسيَّا ان تكريسهُ للشمس يجعل من اجل الرغائب ان تعبد الشمس من الشعب المجتمع فيه وهي ظاهرة بسنانها من المشرق فيُسجد لها باجلال واكرام. ولكن بعد ان اكدت الكتابات الكثيرة التي وجدت في بهو الهيكل انهُ كان مكرسًا لجوبيتر فلم يبقَ محل لهذا الزعم. وهذا الهيكل وان يكن قد هدمهُ البيزنطيون واقتُلعت حجارته الى عمق ليس بقليل لبناء الكنيسة ثم لبناء التحصينات العربية فقد لحق الالمان اثر اساسه الى ان كشفوها تمامًا ومنها استدلوا ان بعد الدرج العظيم كان صفَّان من العمد المائلة الصف الواحد وراء الواحد وراء الآخر ثم فسحة كبيرة خالية ثم باب كبير واسع وان وراء العمد العظيمة التي كانت تحيط بالهيكل من جهاته الثلاث كانت الجدران وهكذا يقل اتساع الهيكل ومن ثم يمكن وضع السقف الهرمي الذي كان يسترهُ من حرارة الشمس وعواصف الشتاء.

ويحيط بالهيكل من جهاته الثلاث بناء هائل مبنيّ بالحجارة الضخمة وهو اوطأ من قواعد عمد الهيكل الخارجية بنحو تسعة امتار يتركب من تسعة حجارة فقط من الشمال يبلغ الحجر منها تسعة امتار ونصف وعلوهُ ٤ امتار و ١٠ س وسمكهُ ثلاثة امتار و ١٥ س ومن الغرب ستة احجار كتلك وعلى خط واحد معها يعلوها ثلاثة احجار طول الواحد منها نحو العشرين مترًا وعلوه اربعة م و ١٠ س وسماكته ٣ م وهي الحجارة الكبيرة الشهيرة التي تذهل كل من زار بعلبك. ومن الجنوب حائط يقابل الشمالي ومؤلف مثلهُ من تسعة حجارة. وهكذا كانت هذه الجدران كسور منيع للهيكل يحيط به من جهاته الثلاث وبينهُ وبين الجدران الحاملة العمد فسحة تبلغ ستة امتار عرضًا وهي مرصوفة بالحجارة الكبيرة من الجنوب والغرب فقط. وقد زعمتُ قبلًا في ما حررته عن بعلبك وواقفني البعض على زعمي بان هذا السور هو بقيَّة هيكل بعل الفينيقي وانهُ لمَّا

تشعث هذا الهيكل بنى الرومان في وسطهِ هيكلهم وتركوا ما بقي من اثر السلف ذكرًا لهُ وجعلوا هذه الجدران الثلاثة كسور يدعمون بهِ هيكلهم . ولكن الالمان يجزمون بعد الحفر بان هذا السور الهائل ليس هو الّا بناء رومانيًّا محضًا ولا يدَ فيهِ للفينيقيين فانهُ والجدران التي خلفهُ الحاملة عواميد الهيكل الروماني بناء واحد مشتبك البنيان ومتناسب الشكل

ثمَّ ان هذا السور لم يكمل من جهاته الثلاث فالحائطان الشمالي والجنوبي كانا معدَّين لمدماك آخر من الحجارة الهائلة على نسبة الثلاثة التي في الحائط الغربي ليتساويا ارتفاعًا وفوق ذلك كلهِ من الجهات الثلاث يكون افريز (قفاتخته) يكاد يحاذي قواعد العمد الكبيرة . وما ذُكر لم يخرج الى حيز الفعل لان هذا السور لم يكمل بناؤهُ ووجود « حجر الحبلى » في المقالع دليل على عدم تمام البنيان . وقد سبق الى هذا الرأي الفرنسويَّان پرو (Perrot) وشيبيه (Chippiez) فانهما أكَّدا بان هذا السور العظيم روماني محض وليس من بقية آثار الفينيقيين

ولكنهُ لا يمكنَّا ان ننفي وجود هيكل فينيقي للبعل في بعلبك قبل ان يبني الرومان هيكلهم فاسم البلد يدل على وجوده وانهُ كان عظيمًا ومكرمًا من ابناء الشرق ومقدسًا في عيونهم . وكيانه في بعلبك وشهرته فيها من اعظم الاسباب التي حملت الرومان على بناء هذه الهياكل بناء فخيمًا يفوق جميع ما بنوه في انحاء المعمور بالعظمة والنفاسة وما ذلك الّا ليكتسبوا محبة الشعب الشرقي بتعزيزهم ديانته وعوائده وبتمثيلهم الههم جوبيتر او زفس كاله شمسي كما كان البعل الفينيقي

ولكن اين هي انقاض ذلك الهيكل القديم الفينيقي وكيف كانت حالته في ابَّان مجده ؟ ذلك ما ضاعت رسومه تمامًا وخفي على مدارك العلماء . وقد وجد الالمان في اسس الرواق المقدم على عمق ثمانية امتار عن سطح الارض بضعة اعمدة ملقاة في حائط الاساس كروابط لهُ فلا يبعد انها من انقاض الهيكل القديم وان حجارتهُ استخدمت في ابنية الرومان (التتمَّة للقادم)